٢ / احتواء المرأة :

الخطاب الجماهيرى عن التكاثر فى الثمانينيات

- أجنة يتامى
- مفهوم الأمومة
- تجديد الحياة
- الجنين : شخص صغير
- الصرخة الصامتة
- الإجهاض : قتل للأجنة ثم عقم للأمهات
- رؤية مستقبلية

أجنة يتامى

حدثت هذه الواقعة عام ١٩٨٦ ، عندما استخرج الأطباء جنيناً عمره ٣٢ أسبوعاً من جسد أمه « مارى أوديت هندرسون » ، والتى توفيت دماغياً قبل إخراجه بـ ٥٢ يوماً إثر ورم بالمخ . وبحكم من المحكمة ، احتفظ الأطباء بأجهزة جسمها تعمل ؛ حتى استطاع جنينها أن يعتمد على نفسه ، ويبدأ فى التنفس ثم استخرجوه بعملية قيصرية وسلموه إلى أبيه . وبعد ذلك بقليل ، تم فصل الأجهزة التى تحفظ حياة هذه السيدة ، ثم أعلنت وفاتها رسمياً .

وبعد ذلك الحدث فى يوليو ١٩٨٦ ، طالعت صحيفة تسمى «الشاطئ الغربى» قراءها بعنوان : «الأمهات الموتى دماغياً يحتفظن بأجنتهن» . ولم تكن تلك هى المرة الأولى التى يحتفظ بها الأطباء بحياة امرأة بمساعدة الأنظمة الميكانيكية الطبية ؛ حتى يمكن للجنين الذى تحمله أن يحتفظ بحياته ، ففى جورجيا عام ١٩٨٣ استطاعوا إنقاذ جنين عمره ٢٢ أسبوعاً بطريقة مشابهة . وفى عام ١٩٨٦ تمكنوا من الاحتفاظ بالحياة لأكثر من ١٢ مولوداً معتمدين على هذه الطرق الحديثة . وعندما انتشرت إعلامياً تلك العمليات ، قوبلت بترحيب شعبى. ولهذا كان الاستمرار فيها مقبولاً لإنقاذ مواليد تالية .

وقبل تجربة هندرسون بعشرين شهراً ، كانت الجريدة نفسها قد نشرت لقرائها مقالة تحت عنوان : «إنقاذ الأجنة اليتامى» . ومما يثير الانتباه فى هذا العنوان هو ربط اليتم بالأجنة ، وذلك ما لم يعتده القراء . وفى هذا الموضوع تطرقت الجريدة لمشكلة الأجنة من زاوية مختلفة فقد وجدوا عدداً منها يعانى الضياع ، وينتظرون الإنقاذ ، فهم مجمدون تحت التبريد ، ويعيشون فى درجة حرارة منخفضة ويتوقون لإعطائهم الفرصة للخروج منها ، والنمو بصورة طبيعية للظهور فى صورة إنسان بالغ . ولهذا طالبت الجريدة بتدخل القانون لحمايتهم ورعايتهم والسماح بغرسهم فى رحم سيدة متطوعة . وقد خصت المقالة بالذكر توأماً يعيش فى مركز فيكتوريا الطبى فى ملبورن فى أستراليا . وهذان الجنينان تكونا بعد موت والديهما ماريو وإليزا فى حادثة طائرة ؛ وبعد موتهما دار الجدل القانونى حول شرعية الاحتفاظ بهما أو التخلص منهما ، وعن ماهية الشروط التى توضع للمفاضلة بين المتطوعين لتبنيهم ، ودار الاختيار بين من تكون لهم علاقة جينية بهما أو ألا تكون هناك صلة ، أو أن يمنحا لأسرة واحدة لتهيئة ظروف متساوية لكليهما ، أو يعيشا فى أسرتين مختلفتين ، أو يستقل كل منهما بحياته ومستقبله .

وقد اهتم بعض الباحثين بالسؤال عن مستقبل هذين الجنينين ، ولكن على الأقوال تضاربت وتعددت ، فقد ذكر أنهما وجدا ميتين لأن وسائل التجميد لم تكن متطورة بصورة كافية . وقيل إن أحد الباحثين حاول تتبع نسبهما ، فوجد أنهما لم

يكونا يتيمين على الإطلاق ؛ لأن الحيوانين المنويين المستخدمان فى تكوينهما أخذا من مانح لم يذكر اسمه .

وهذان الحدثان : «إنقاذ الأجنة من الأمهات الموتى دماغياً و «استخدام الأجنة المجمدة» يبدوان خبرين عاديين للقراء فى وقتنا الحالى ، وبعد مرور سنوات على حدوثهما ، بعد أن كانا يبدوان – فى حينهما – منافيين للطبيعة ، ومجافيين للعقل الإنسانى . فما الذى جعل ذلك التنافر القديم تناغماً مقبولاً هذه الأيام ؟ وما الذى جعل تلك الأمور تؤخذ بجدية وبتفهم حقيقى لأبعادها العلمية ، ولا يعتقد أحد أنها محض خيال ؟ ثم ما الافتراضات والتوقعات التى يخبرنا بها العلماء الآن عما يمكن حدوثه فى مجال التكاثر والإخصاب ؟ وما العلاقات التى تنجم عن هذه الممارسات العلمية ؟ وكيف يبدو العالم فى نهاية هذا القرن ؟ وما حقول العلم والمعرفة الجديرة بالنشر والتطبيق فى كل أرجاء العالم ؟

مفهوم الأمومة

إذا أخذنا فى الاعتبار العنوانين السابقين ، فإن التصاق العبارة بالأذهان يعتمد أولاً على فهم الأمومة ؛ ففيهما تساوى الحمل مع الأمومة ، وبهذا تكون الأمومة قد نقص قدرها ، حتى اعتبرت وظيفة فسيولوچية أو مجرد جذور بيولوچية ، أو تكون مرادفة لكلمة إمرأة ؛ حيث تركز مضمون الأمومة فيها على الاهتمام بمقدرة السيدة على الحمل ، وهو وظيفة طبيعية لا تشمل وعى السيدة الشامل ، كأم ترعى وتحضن الطفل خلال سنوات حياته .

وتضاربت الآراء حول مكانة الأم ، والمعنى الذى يحمله هذا اللقب ، وقد صاحب تلك المجادلات ضيق الأفق ، وخاصة بعد ازدياد الممارسات التى يقوم بها بعضهم مثل الإجهاض . واعتبر الكثيرون وظيفة الأم مجرد أداء بيولوچى ؛ لكونها العنصر الذى يغذى الجنين ، ويمده بأسباب الحياة . بينما اعتبر البعض الآخر الأمومة مجموعة من الممارسات الاجتماعية ، التى تحدث تلقائية وببساطة شديدة بين الأم وطفلها ، ثم تستمر مع تلازمهما ليقوى الإحساس ويصبح أكثر رسوخاً . ومن المنظور الفلسفى عبر أرسطو عن تلك الرابطة بأنها عملية بيولوچية تحفظ الأجنة بطرق كيميائية وميكانيكية متعددة . وبهذا المفهوم تقلصت الأمومة ؛ لتصبح مجرد إمداد الجنين بالأنسجة البيولوچية .

وموت الأم دماغياً مع احتفاظها بالجنين ، وظهور العنوان بتلك الصورة لا يوضح دور الفريق الطبى المتكامل من الأطباء والمساعدين ، الذين ساهموا فى نجاة هذا الوليد ؛ فيبدو معناه وكأن السيدة احتفظت بجنينها ، على الرغم من أن أعضاء جسمها لم تعد قادرة على أداء وظائفها الفسيولوچية . وهنا يبرز الدور الضخم الذى قامت به هذه المجموعة المتكاملة من الأجهزة المعقدة والإدارة الدقيقة لها من قبل

العاملين عليها ، فالجميع كرسوا جهدهم ورعايتهم لذلك الكائن الصغير ؛ ليخرج صحيحاً وقادراً على مواجهة بيئته الجديدة . وخلال تلك الفترة الحرجة ، لم تكن الأم واعية بما يدور حولها، وليس لها إرادة فى هذا العطاء ، وكأنها مجرد وعاء طبيعى يتناسب مع استمرار حياة الجنين ، على الرغم من أنها لم تكن مشاركاً نشيطاً فى إيجاد هذه الفعالية واستمرارها .

تجديد الحياة

خلال العقد والنصف الأخير ، كانت المحاضرات العامة والمناقشات تتخذ طابعاً حاداً وحيوياً لمناقشة مدى تأثير إباحة الاجهاض ، وتبحث علاقة المواليد بالأمهات ، وحياة الشباب فى المرحلة التى تسبق تكوين الأسرة ، والممارسات الجنسية للمراهقين ولغير المتزوجين ، والتفريق العنصرى . كل تلك العوامل أدت إلى ظهور تفكك واضح فى المجتمع وخلخلة فى بنيانه ، فقد دمرت ببطء وباضطراد مستمر العلاقات الأسرية الطبيعية الحميمة ؛ مما أوجد حملة دعائية للعودة إلى الأساسيات الخلقية ، فى محاولة جادة لإحياء البلاد خلقياً وعقائدياً وثقافياً .

فى عام ١٩٨١ بحث القضاء تحديد دلالة الحياة بالنسبة للجنين بهدف تقديمها للكونجرس الأمريكى كمشروع تشريعى ، وكتذكرة لتجديد حياة الإنسان الطبيعية الحقيقية ، مستنداً إلى المفاهيم والقواعد والدلائل العلمية الموجودة آنذاك . وأهمية ايجاد هذا التشريع نبعت من كونها ضرورية فى الممارسات الطبية ؛ ففى تلك الممارسات ليس هناك مجال للجدال ، ولابد أن تحكم الأمور بمفهوم تشريعى واضح ؛ فالاستناد على حكم قضائى لا يعطى فرصة للاختلاف فى مجال حيوى كالطب . والقانون مهتم أساساً بحماية الأفراد بعد ولادتهم ، أما من لم يولد بعد فلم يكن معرفاً قانونياً بأنه شخص له حق الحماية . وبتعديل القانون يصبح التشريع الجديد مؤيداً لوجهة النظر القائلة أن حياة الإنسان تبدأ مع الحمل ، وذلك لضمان وصول حقوق الإنسان كاملة إليه ، بغض النظر عن عمره قبل الميلاد أو بعده .

ولترسيخ ذلك المفهوم التمس المساندون لهذا الرأى شهادة من العلماء المتخصصين وخاصة فى مجال الأجنة والوراثة والأحياء .. فقد أرادوا إيجاد تصور مختلف ، عن ذلك الذى أوجده الفلاسفة والكهنة فى عصور سابقة ، وخاصة بالنسبة للنفس والأصل وقوام المادة والأشياء ، وأيدهم الكثير من الخبراء . لكن هناك صوتاً واحداً خالفهم جميعاً هو ليون روزنبرج ، وجادلهم بحجته التى تستند إلى أن تلك التقديرات التى أخذت فى الاعتبار خارج نطاق العلم ؛ فالمعلومات التى يجب أن تستخدم لتعريف حياة البشر بدقة لا توجد . وأيدت الأكاديمية القومية للعلم هذا الرأى ، وحذرت بأن ذلك القانون قد يؤثر على الأمن العلمى والقيم الأخلاقية والأمور الدينية .

وبعد سماع تلك المناقشات والمجادلات والشهادات العلمية ، اقتنعت اللجنة الفرعية لمحكمة سينات بوجهة نظر المختصين ، وخرج الجنين للعالم معرفاً بأنه شخص، ولكن ليست له حماية قانونية محددة ، فبدا وكأنه شخص خيالى فى عالم الحرية الفردية التى تؤمن بالاستقلال الذاتى للفرد ، تلك الأمور الدنيوية لا يتحملها – إلا بصعوبة بالغة – الشخص البالغ .

الجنين : شخص صغير

وهكذا بدأ مفهوم الجنين وتعريفه بأنه شخص صغير ، يتماسك ويبدو أكثر وضوحاً خلال فترة الثمانينيات ، بعد أن أعادت الجهود القانونية تشكيل هذا المفهوم، وصاحب ذلك ظهور صور متعددة للأجنة – فى المحطات والاستراحات العامة وفى لوحات الإعلانات وأغلفة المجلات ونشرات الأخبار . وبدت الأجنة فى هذه اللوحات والملصقات المنتشرة فى شتى الأماكن – معلقة فى مكان خالٍ ، تطفو بحرية ، مغطاة بجلد رقيق شفاف ، يظهر مدى حساسيتها ونعومتها ووجدتها ، وكل منهم إما يضع إبهامه فى فمه أو يلتمس ويتضرع بيديه ، وكتبت لافتات تحتها تقول: «هل ينسون شخصاً ما» أو «الأجنة الذين لم يولدوا .. هم أشخاص أيضاً» أو مقالة بعنوان : «أوقفوا القتل» ، وهكذا يظهر الهدف جلياً من تلك الدعاية المكثفة ، ثم يلح السؤال : «من هو بدقة ذلك المخلوق ، وهل سيكون شخصاً طبيعياً» .

الصرخة الصامتة

هذا التمهيد ، وهذه المقدمات أوجدت الصورة المراد وضعها فى الاعتبار فى أول عقد الثمانينيات ، ثم تلتها الصيحة الأكثر أثراً فى الأذهان عام ١٩٨٤ ، عندما دعى الأمريكيون للإدلاء بأصواتهم بعد عرض شريط فيديو ، تحت عنوان «الصرخة الصامتة» ؛ ليدافعوا به عن وجهة نظر الضحايا لتلك الممارسة . وفى هذا الشريط صور جنين عمره ١٢ أسبوعاً ، باستخدام الموجات فوق الصوتية فى وقت الإجهاض؛ ليعرض حدثاً طبياً للمشاهدين ، من خلال اللونين الأبيض والأسود ، ويصاحبه تعليق طبى ليوضح الأحداث . بدأ الشريط بوضع دمية صغيرة خلف الجنين ليعطى على الشاشة انطباع الجنين ؛ الذى لم يولد مع إنسان مكتمل . ثم بدأ المعلق روايته وهو رابط الجأش ، هادئاً ومع حركة الجنين اهتاج ، وكأن كرباً شديداً أصابه عند بداية سحب الجنين .. ثم تراجع الجنين فى جهاز الشفط فى حركات يائسة ، فعلق المعلق بأنه يواجه الإحساس بالخطر المحدق ، عند خروجه من ملتجئه وحرمه وملاذه ومكانه الآمن «الرحم» .. وفى لحظات معدودة انتهى صراعه . وأرخى يديه بعد تلك المعركة الصغيرة العنيفة ، واستسلم ملقياً برأسه إلى الخلف ، قبل أن يستسلم تماماً ويتحطم نهائياً .. فيما أسماه المعلق «الصرخة الصامتة» .

وقد عرض هذا الشريط عقب بحث نشرته مجلة نيوإنجلند الطبية فى عام ١٩٨٣ ، ومن خلاله عبر باحثان عن ملاحظتهما أن صورة الجنين بداخل رحم الأم

تبدو عند تصويرها بالموجات فوق الصوتية ، وكأنها علامة مميزة لكل جنين مع أمه ، فهما بذلك يكونان – معاً – شيئاً خاصاً بهما – فقط – لا يختلط مع أى صورة أخرى . ومع تلك النظرة الفاحصة والتطورات التكنولوجية ، التى أتاحت للسيدات متابعة حملهن مع الموجات فوق الصوتية ، ومعرفة سير الأمور أثناء الحمل ، لم يعد الجنين يحيا فى عالم منعزل خاص به وحده ، يصعب اختراقه ؛ فقد أضاءت تلك الأجهزة ذلك الحرم المظلم الذى يحيطه ، فأتاحت للعين العلمية الثاقبة أن تكشف الحجاب عن تركيبه الداخلى ؛ وتطلع المختصين على صورة مليئة بالحركة ، فذلك المخلوق الصغير المدهش يتحرك بحيوية ونشاط ، ولا يبدو كطفيل سلبى ، كما كان يظنه الباحثون قبل ذلك . وبفضل هذه المساهمة العلمية الجادة أمكن فهم هوية الجنين ، وتشخيص أى عارض يطرأ على سلوكه ليصف المختصون العلاج ، ثم اقتربوا منه أكثر وأمكنهم أن يجروا له بعض الجراحات ، وهو داخل حرمه الآمن . وإذا ما تغيرت الأمور واضطر للخروج مبكراً ، فهو فى أيد أمينة ، وتحرسه معدات متقدمة تساعده فى تلبية احتياجاته ؛ حتى يستطيع الاعتماد على نفسه .. وهكذا تمكن العلماء من الاقتراب منه ، وأوجدوا له وسائل اقترابه من العالم الخارجى ؛ ليعبر إليه آمناً بسلام . وقد عبروا عنه وأحسوا به أحسن التعبير والإحساس ؛ لأنهم أيقنوا أنه شخص له مشاكله ، ولكنه لا يستطيع الشكوى ليعبر عنها ، ويحتاج من يعاونه ليعبرها ؛ فلابد من تقديم المعونة له ، ثم مساندته فى الحياة بالأطباء المتخصصين ، ثم بالتشريعات التى تحميه وتحفظ له كينونته .

الإجهاض : قتل للأجنة .. ثم عقم للأمهات

احتلت مشاكل المرأة وكيفية احتوائها قدراً كبيراً من الاهتمام ، وخاصة تلك التى تعلقت بالإجهاض ؛ فعلاقة الأم بجنينها – وخاصة بعد أن اخترق العلم حجاب الغموض – اكتسبت أهمية خاصة ؛ فقد حول العلم النظرة الجزئية للرحم وحياة الجنين إلى نظرة أكثر شمولاً ، وظهرت الأجنة ممتلئة بالحركة والحيوية ، ومن خلال النظرة المتأنية بدوا وكأنهم يدرجون بخطى صغيرة للحياة ، وبنظرة فاحصة توجه إلى القلب وليست للرحم ، وربطها بتلك الكلمة «القلب» ، والتى يرجع أصل معناها فى اليونانية إلى الرعاية والاهتمام ، أو تعود تاريخياً للغرب فتعنى المعرفة بجوهر الأشياء ومصدر الحقيقة ومنبع الإحساس الخلقى والوعى الدينى ، سنجد أن ارتباط القلب مع الرحم فى المرأة يميز قدرتها على خلق الحياة بداخلها ، ثم الحفاظ عليها ، وعلى أواصرها بعد ذلك .

ومن هذا المنطلق تكون إباحة الإجهاض شيئاً منحرفاً تماماً عن طبيعتها ، وبسبب تلك الممارسة وضعت المرأة بأنها أنانية وغير مثقفة ، وليس لها خبرة فى شئون القلب ولا مبالية ؛ فهى بإقدامها على ذلك العمل ، تنتهج شيئاً منحرفاً تماماً

عن طبيعتها وتتخذ موقفاً عدائياً من جنينها «جسدياً وعاطفياً» . وبعد التطور التكنولوجي الذى أتاح رؤية الأم لجنينها ، تستطيع أن تعيد النظر فى موقفها برؤية أكثر وضوحاً . هذا بالإضافة إلى أن ذلك التقدم الطبى دفع السلطات القضائية إلى التدخل لحماية الأجنة ؛ فقد دعت إلى التدخل القهرى لمنع هؤلاء السيدات من الإجهاض ، إما باحتجازهن ومنعهن من التدخين وشرب الكحوليات – لو كن معتادات على ذلك – أو التدخل الطبى القهرى لمنع تعاطى الأدوية الممنوعة أو العقاقير المخدرة ، وسن القوانين لحمايتهن من أى عنف يتسبب فى الإجهاض ، إذا تعرضن للضرب أو المهاجمة . ولم تتطرق تلك النظرة إلى حماية الأم فقط ، بل اتسعت لتشمل الجنين وتحميه من الضرر ، الذى يصيبه حتى لو كان من الأم نفسها باعتبار أنهما فردان مختلفان فالتى تهمل تغذية الطفل تعتبر غير أمينة عليه .. وهكذا يبدو الحمل الذى كان أكثر الأمور طبيعية ، وكأنه أمر جلل غير مأمون العواقب . وعلى الرغم من أن القانون الأمريكى يرفض إعطاء الحق لأي إنسان فى استخدام جسد إنسان آخر – سواء أكان مولوداً أم لم يولد بعد – إلا أنه اعتبر فى بعض تشريعاته جسد السيدة الحامل له صفة عمومية خاصة بالأمومة ، ولذلك اعتبر صوت المرأة التي تطالب بالإجهاض خطراً على المجتمع ، ولم يستثن منهن إلا السيدات اللاتى لا يعين خطورة الإقدام عليه بسبب حالتهن المرضية أو العصبية .

وقد وجد أن بعض السيدات يعانين من حالة إعياء نفس وجسمانى شديدة بعد عملية الإجهاض .. وكأنهن تحكين قصة التدمير والتشويه والفساد الخلقى للمرأة ، التى فقدت وعيها بمكانتها وطبيعتها ، ثم ما تلا ذلك من شعور بالإثم ، وما تلاقيه من تجريم المجتمع لفعلتها . وعادة ما تفقد تلك السيدة رغبتها فى العمل ، ويلازمها شعور بالإحباط واليأس ، وتحس بنوبات من الغضب الجامح والاهتياج ، وقد تلح عليها رغبة شديدة فى التقرب إلى من تقابلهم من الأطفال والمواليد ، وقد تصاب برغبة فى تدمير الذات . ولهذا بدأت القوانين تنظر فى إيجاد صيغة تناسب الاثنين معاً «الأم والجنين» ؛ لتعطى لهؤلاء السيدات الطمأنينة والثقة فى النفس مرة ثانية ، من خلال استعادة المودة فى نظرة المجتمع إليهن .

وانتشار الإجهاض تسبب فى ايجاد نسبة مزعجة من حالات العقم ، ولذلك اعتبر الإقدام عليه انحرافاً اجتماعياً خطيراً ، ونوعاً من العنف النسائى ضد الطبيعة ؛ لأن مقدرة المرأة على الإنجاب تمثل أنوثتها . ولا تقتصر أسباب زيادة نسبة الإجهاض على عامل واحد ، بل شارك فى زيادتها الفردية فى التصرف والاختيار ، وحرية الممارسة الجنسية ثم ما يتلوها من أمراض ، والعنف فى ممارسة بعض الرياضات ، والرقص الذى يستلزم الاهتزاز المستمر لفترة طويلة ، والقفز والجرى لمسافات طويلة وأخيراً الضغط العصبى الناجم عن أعباء المهن المختلفة .

وقد فشلت وسائل الإعلام فى توضيح حقيقة العقم ، على الرغم من أنه كان موضوعاً مفتوحاً للمناقشات وحظى باهتمام واسع ، وقد نشر أن نسبته أكبر فى السيدات السوداوات ، اللاتى يعشن فى مستوى اجتماعى واقتصادى متدنٍ من هؤلاء البيضاوات اللاتى يتمتعن بحياة مرفهة . ووجد أن الرجال أيضاً يعانون من العقم بسبب التلوث البيئى أو التعرض لسموم ضارة فى أماكن العمل ، أو عدم كفاية الرعاية الصحية ، أو التشخيص الخاطئ لبعض الأمراض ، أو سوء استخدام عمليات التعقيم . واعتبر انتشار استخدام وسائل منع الحمل من العوامل المؤثرة أيضاً فى زيادة نسبة العقم فى الجنسين.

وعلى الرغم من التطور التكنولوچى ، الذى أتاح للسيدات اختيار الوسيلة المناسبة لها لتتغلب على مشكلة العقم ، إلا أن نسبة العقم ظلت ثابتة فى الولايات المتحدة الأمريكية .. وتعقيباً على ذلك الأمر ، نشرت مقالات توضح أن الرعاية الصحية التى تتيحها هذه التقنيات الحديثة موجهة بالدرجة الأولى للنساء البيضاوات ، اللاتى تقدم لهن تلك الرعاية . ولذلك نشأت فى المجتمع مجموعة من السيدات اللاتى ، لا تستطعن الإنجاب ، وأخريات سوداوات ينجبن أطفالاً ولا يستطعن رعايتهم .

وإذا كان بعض الفلاسفة مثل أرسطو وأبوقراط يرون أن التعبير الحقيقى لهدف المرأة يكمن فى الزواج والأمومة والمنزل . ولذلك يعتبر من منافاة الطبيعة تأخير الإنجاب والإجهاض ، وإباحة الجنس بحرية ، ومشاركة المرأة فى وظائف خارج منزلها. وقد عبر باتريك ستبتو (وهو أول واهب لطفلة أنابيب) بقوله : «إنها حقيقة أن يكون هناك ميل حيوى للإنجاب ، والمرأة التى تنكر ذلك أو أحبطت فى هذا المجال، لابد وأن تكون قلقة فى مجال آخر» .. وهكذا تبدو رسالة المرأة .

رؤية مستقبلية

صدرت مجلة «الحياة» فى فبراير عام ١٩٨٩ ، وبها مقالاً بعنوان : «رؤى للغد» ، ومن خلال هذه المقالة منحت المجلة للقارئ رحلة مستقبلية فى الحياة ، قدمها الخبراء لصورة القرن الحادى والعشرين من الناحية الصناعية والبيئية والسكانية. وقسمت الرحلة إلى ثلاث وجهات : النفس والمجتمع والكوكب . وتحت عنوان «اختراع الأمهات : طرق جديدة لتبدأ الحياة» ظهرت صورة طاولة حديدية ، تحت أضواء حجرة عمليات مع أنابيب ، تمتد من الجانبين ؛ لتحمل محلولاً ملحياً للجنين المزروع فى الرحم . هذا الرحم موجود خارج الجسم ؛ ليمثل تجربة أجريت على بعض حالات العقم بواسطة مجموعة من الأطباء الإيطاليين فى العام نفسه (١٩٨٦) . وعلى الرغم من إعاقة هذه التجارب وتوقفها تماماً لمعارضتها الأسس الأخلاقية ، إلا أن المجلة تتنبأ بأن تلك الأبحاث ستستمر لتنتج رحماً ومشيمة صناعيين . وتستمر المقالة لترجح أن الولادة فى القرن الحادى والعشرين لن تستلزم أن

تحمل الأم جنينها ، ولنها ستحتاج إلى زيارة واحدة للحضانة ، يحمل بعدها الطفل فى رحم صناعى ، تحيطه ظروف مهيأة لتماثل رحم الأم نفسها ، وستزود بصوت تنفس وطريقة حركة وصوت الضحك ، ولحظات الانفعال التى تشابه طبيعة الأم تماماً .

والحضانة التى تتحدث عنها المقالة ليست جهازاً صناعياً بحتاً ، يمثل نسخة من رحم الأم ، بل سيكون رحم الأم نفسها بعد الإخصاب ، يؤخذ ويحفظ بعد استخراجه من جسدها ليعمل ميكانيكياً . وهنا يبرز سؤال حيوى مهم : ما الذى يميز هذا الرحم الموجود على الطاولة الحديدية ، عن ذلك الرحم الموجود بداخل سيدة توفيت دماغياً واحتفظت بجنينها حياً ، من خلال نظام ميكانيكى يساعدها على إتمام نمو الطفل ؟ ومساهمة الأم الميتة حدثت بطرق عدة ، منها : اهتزاز السرير ميكانيكياً وتشغيل موسيقى بداخل الحجرة ، والحرص على أن تصدر الممرضات أصواتاً خاصة لإيجاد بيئة طبيعية حول هذه السيدة . وعلى الرغم من ذلك وصفت الطريقة الأولى بأنها وحشية وخطيرة والثانية بأنها حدثت فى لحظة تاريخية متقنة ، ظهر فيها البذل والعطاء للأمومة التى تضحى بنفسها .. ونعود للسؤال مرة ثانية : ما الفرق بين الرحمين ؟ فكلاهما يعد حضانة .. وعلى الرغم من تناول المقالة لموضوع التكاثر ، مبينة أنه على مشارف بدايات أخرى جديدة وجريئة مما يستلزم تطويراً جاداً وجديداً فى المصطلحات العلمية والاجتماعية والطبية ؛ لأن العصر المقبل يبشر بالقدرة الفائقة على التحكم فى العالم ، وإعادة تكوين وبناء الطبيعة . وعلى الرغم من تلك النبوءة ، إلا أن قصة السيدة المتوفاة شئ من هذا التحديث ، فقد بقى الوليد واحتفظت هى بلقب الأم ، متغلبة بذلك على موت الطبيعة ذاتها .

والشئ المثير فى هاتين الرواتين هو أن كليهما يحتوى الآخر ، ويساهم فى تكوينه وبنائه ، فقد أصبح عدم الثبات على الأمور المتوارثة أمراً حتمياً لإعادة تشكيل الهوية . فالتكنولوچيا هى التى ساعدت السيدة على تحقيق أمومتها ، ودون انتقاص من قيمة هذا الحق ، الذى بقى لها على الرغم من اختلاف الوسائل والمفاهيم .. وأثيرت التساؤلات مرة أخرى : هل هذه السيدة المتوفاة تعد بمثابة حضانة؟ أو يمكن اعتبارها من طرز الأحياء الأولية ؟ أم تعتبر أماً حاضنة ؟ وأين رغبتها فى الاحتفاظ بالطبيعة أو التقاليد المتوارثة ؟ .. ومن هذا المنطلق ، وبعد المجادلات العلمية والفكرية والقانونية والاجتماعية ، رأى العلماء أن استخدام الحضانة الصناعية قد يكون بديلاً مناسباً .. أو قد يكون مفضلاً فى بعض الأحيان .

ومازالت هناك مجالات أخرى لتطبيق تلك التكنولوچيا ، ولكن هناك أيضاً رؤىً

مختلفة وبعض السلبيات تواجهها ؛ فالأجنة المعلقة فى الثلج ، والتى وصفت باليتم تحتاج لحماية ممن تحملها حتى الولادة ، وهذه الأجنة زاد عددها بصورة كبيرة تمكنهم من إنشاء وطن جديد خاص بهم . ولكل جنين هوية وظروف خاصة به، فمنهم من ينتمى لزوجين توفى أحدهما وأوصى قبل وفاته بعدم استخدامها بعد موته ، وآخر يخص زوجين مطلقين ، يرفض أحدهما السماح بغرسه ، وثالث لا يرغبه أحد لرفضه حل مشكلة الإنجاب عن طريق مانح مجهول أو معلوم . وهكذا تتوقف حياة تلك الأجنة أمام الرغبات المتعارضة ، فرغبة الأمومة يقابلها رفض الزوج، واعتقاده أنه وحده يملك الحق فى تقرير الإقدام على تلك الخطوة . ولذلك كان من الضرورى تفهم تلك الأمور المستحدثة ، وتقليل الفجوة العميقة بين ماهو متوارث وماهو مستجد . ولا يكون حسن التقدير فى هذه الأمور إلا بالدعوة إلى الشجاعة والوضوح فى أخذ ما يقدمه العلم بجدية كافية ، ثم تطوير الاستخدامات بصورة عملية وعلمية وخلقية ، تحقق القول الفلسفى : أننا نكون فقط ودائماً بما نصنعه .